

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عنوان الماستر: العقيدة الإسلامية

السداسي: الثاني

اسم الوحدة: المنهجية

اسم المادة: مناهج الاستدلال في علم العقائد

الأستاذ المحاضر: عمار قاسمي

الرصيد: 04

المعامل: 02

أهداف التعليم: تمكين الطالب من إدراك مناهج الاستدلال في علم العقائد لدى المدارس

الكلامية الكبرى

المعارف المسبقة المطلوبة: درس الطالب في مرحلة ليسانس وماستر جوانب مختلفة حول

العقيدة الإسلامية.

محتوى المادة

المحاضرة رقم (1)

المبحث الأول: ضبط المصطلح والنشأة

1- المنهج

وردت كلمة "منهج" مرة واحدة في القرآن الكريم برسم "منهاج" في قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ صَدَقًا لِّمَنْ يَدِينَهُ مِنَ الْكُتَابِ وَهُدًى وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جُنَّةٍ مَا فُتِنَ مِنْكُمْ شَرٌّ وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُعْذِبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَلَفُونَ) (المائدة: 48)، وإذا رحنا نتلمس معناها عند المفسرين في هذه الآية الكريمة، سنجده يعني: السبيل والسنة والطريق الواضح البين والسهل، والطريق الواسع، فقد ورد عند ابن كثير أن:

المنهاج هو "السبيل والسنة والطريق الواضح والسهل"⁽¹⁾، أما عند مُجَدِّ الطاهر ابن عاشور فاعتبر أن "المنهاج: هو الطريق الواسع... فمنهاج المسلمين لا يخالف الاتصال بالإسلام، فهو كمنهاج المهتدين إلى الماء، ومنهاج غيرهم منحرف على دينهم، كما كانت اليهود قد جعلت عوائد مخالفة لشريعتهم، فذلك كالمنهاج الموصل إلى غير المورد، وفي هذا الكلام إبهام، أريد به تنبيه الفريقين إلى الفرق بين حالتهما، وبالتأمل يظهر لهم"⁽²⁾، وورد المعنى نفسه في تفسير المنار، لكنه ركز وفصل أكثر في نسخ الشرائع لبعضها واعتبر هذه الآية (لِكُلِّ حَلَّةٍ مَا مِنْكُمْ شَرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاهٌ) "نص في أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا مطلقا، سواء كانت اللام في قوله: (لِكُلِّ حَلَّةٍ مَا) للاختصاص الحصري أم لا"⁽³⁾.

والمعنى نفسه يدل عليه هذا اللفظ في الحديث النبوي الشريف، فقد ورد في أحاديث كثيرة نذكر منها (حدثنا مُجَدِّ بن المثنى العنزي حدثنا معاذ بن معاذ حدثنا عبد الله بن عون عن مُجَدِّ بن سيرين عن قيس بن عباد قال كنت بالمدينة في ناس فيهم بعض أصحاب النبي ﷺ فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع فقال بعض القوم هذا رجل من أهل الجنة هذا رجل من أهل الجنة فصلى ركعتين يتجاوز فيهما ثم خرج فاتبعته فدخل منزله ودخلت فتحدثنا فلما استأنس قلت له إنك لما دخلت قبل قال رجل كذا وكذا قال سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم وسأحدثك لم ذاك رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه رأيتني في روضة ذكر سعتها وعشبتها وخضرتها ووسط الروضة عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء في أعلاه عروة فقيل لي أرقه فقلت له لا أستطيع فجاءني منصف قال ابن عون والمنصف الخادم فقال بثيابي من خلفي وصف أنه رفعه من خلفه بيده فرقيت حتى كنت في أعلى العمود فأخذت بالعروة فقيل لي استمسك فلقد استيقظت وإنما لفي يدي فقصصتها على النبي ﷺ فقال تلك الروضة الإسلام وذلك العمود عمود الإسلام وتلك العروة عروة الوثقى وأنت على الإسلام حتى تموت قال والرجل عبد الله بن سلام)⁽⁴⁾.

وفي معاجم اللغة العربية لا يختلف مضمون معنى هذا اللفظ عما وجدناه في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فقد ورد في لسان العرب؛ "نَهَجَ طريق نَهَجٍ؛ بين واضح، وهو النهج..."

- 1- أبي الفداء إسماعيل بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج2، القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. (ط3، 1423-2002م)، ص67.
- 2- مُجَدِّ رشيد رضا. تفسير المنار. ج6، القاهرة: دار المنار. (ط2، 1367هـ)، ص414.
- 3- مُجَدِّ الطاهر ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير. ج6، تونس: الدار التونسية للنشر. (دط، 1984م)، ص223.
- 4- صحيح مسلم. كتاب فضائل الصحابة. من فضائل عبد الله بن سلام. رقم الحديث 2484.

والجمع نَهَجَاتٌ وَنَهَجٌ وَنَهْجٌ... والمنهاج كالمناهج: وهو الطريق البين الواضح⁽¹⁾، وهذا المعنى موجود في أغلب المعاجم العربية، وقد ذهب جميل صليبا إلى أن "جميع الكتب التي سميت بهذا الاسم -منهاج أو منهج- تشير إلى معنى المنهج أو المنهاج عند مؤلفيها، هو الطريق الواضح والسلوك البين والسبيل المستقيم"⁽²⁾، وميز الكفوي بين المنهاج والمنهج من حيث أن المنهج هو "الوجه الواضح الذي جرى عليه الاستعمال" والمنهاج "الطريق الواضح"، فالمنهج هو الدين وهو الشرعة وما ورد به القرآن الكريم، والمنهاج هو الدليل وهو ما وردت به السنة العطرة، واستند في ذلك إلى تفسير ابن عباس لقوله تعالى: (لِكُلِّ جَلَدٍ مَّا مِنْكُمْ شَرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاهٌ) (المائدة:48)، حيث يعتقد أن الآيات الكريمة نزلت بسبب قضية القصاص وقضية الرجم بين اليهود وتحاكمهم في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽³⁾.

إذن فالمنهج في العربية هو الطريق البين الواضح الواسع والسبيل المستقيم.

إلا أن هذا اللفظ شهد تقلبات عديدة حين أضيفت إليه الدلالات الاصطلاحية، نتيجة محورته في البناء المعرفي والتدافع الحضاري؛ فقد رسخ في الأذهان أن المنهج هو المنهج العلمي التجريبي الذي ظهر في عصر النهضة الأوروبية، على يد الإنجليزي (فرونسيس بيكون) الذي وضع في القرن التاسع عشر الميلادي كتابه الشهير "الأرغانون الجديد"، ويعني به منهج البحث التجريبي الذي عارض به أرسطو في كتاب "الأرغانون" القديم.

ويتلخص مضمون الكتابين في أن أرسطو حاول تفسير الظواهر الطبيعية مستخدما القياس النظري المجرد، لاعتقاده أن المشاهدة الحسية والتجربة المادية لا تحقق اليقين، وهذا بالطبع أدى إلى نشأة الفلسفة النظرية عند اليونان، وتطور العلوم النظرية البحتة في عهد فيثاغورس وأقليدس.

-
- 1- ابن منظور مُجَّد. لسان العرب. تحقيق عبد الله علي الكبير. القاهرة: دار المعارف. ص4554، والمعاني نفسها وردت في القاموس المحيط للفيروز آبادي: بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. (ط8، 1426هـ-2005م)، ص208.
 - 2- جميل صليبا. المعجم الفلسفي. ج2، بيروت: الشركة العالمية للكتاب ش م للطباعة والنشر والتوزيع. (د ط، 1414هـ-1994م)، ص435.
 - 3- عبد العزيز بن عبد الله الحميدي. تفسير ابن عباس ومروياته. مكة: مركز البحث العلمي في التراث الإسلامي، جامعة أم القرى. (دط، دت)، ص340-341.

من ناحية أخرى قال بيبكون: أن المنهج العلمي يبدأ بمرحلة التاريخ الطبيعي، ومنها يشرع الباحث في جميع المشاهدات التي لها صلة بالظواهر المراد البحث عن قانونها، ثم يعتمد بعد ذلك إلى تبويب الشواهد التي يفسر من خلالها تلك الظواهر.

"يتضح إذن أن كلا المنهجين الذين قال بهما أرسطو وبيكون، بعيدان عن المنهج التجريبي بمفهومه الحالي، ويرى البعض -خاصة علي سامي النشار- أن بيبكون تأثر في منهجه بطرق البحث التي سار عليها علماء الحضارة الإسلامية في دراساتهم التجريبية، غلا أن نظريته تقصر البحث العلمي على المشاهدة والتجربة، وجمع المشاهدات ونتائج التجارب... وهذه الطريقة تحصر تفكير الباحث في مجرد جمع الوقائع المشاهدة"⁽¹⁾.

وقد أدى الاستلاب الحضاري وهيمنة المفاهيم الغربية، إلى اعتبار كلمة منهج⁽²⁾ هي ترجمة للكلمة *méthode* الفرنسية ونظائرها في اللغة الأوروبية، والتي ترجع في النهاية للكلمة اليونانية *méthodos* وهي كلمة استعملها أفلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، كما استعملها أرسطو في أحيان كثيرة بمعنى البحث.

وتم حصر مفهوم المنهج في نشأته وتطوره ومساره ومآله، بالتجربة التاريخية الأوروبية وخصوصا بعصر النهضة وبأعمال ديكارت *Descartes* وبالأعمال المنطقية لـ *Nunez و Molina* و *Zabarella* وهي الأعمال التي -في اعتقادهم- مهدت للمحاولة الواضحة التي قام بها *Ramus* وفرنسيس بيبكون، ثم محاولات جماعة "منطق بور رويال"، وغدا المنهج مجموعة من القواعد العامة المضاعفة من أجل الوصول إلى الحقيقة.

ولما كانت الحضارة إنسانية ليست ملكا لشعب دون غيره، فإن المسلمين في استئنافهم للدور الحضاري، تفاعلوا مع المساهمات العلمية لثقافات الشعوب التي سبقتهم عن طريق الترجمة، وصرحوا بما ترجموه، تحليا بالأمانة العلمية، كترجمة "سند هند الكبير" للفلكي الهندي (براهما جوبتا)، وكتاب "أصول الهندسة" لإقليدس، وكتاب "المجسطي" لبطليموس، و"الأورغانون" لأرسطو...، ودرسوها

1- أحمد فؤاد باشا. التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة. القاهرة: دار المعارف (ج.م.ع)، (ط1، 1403هـ-1983م)، ص44.

2- طالع على سبيل المثال لا الحصر:- عبد الرحمن بدوي. مناهج البحث العلمي. الكويت: وكالة المطبوعات. (ط3، 1397هـ-1977م)، ص3-5.

دراسة نقدية فاحصة، واستوعبوا ما فيها قبل تنقيحها وترتيب علومها وشرحها والتعليق عليها، ثم تجاوزها بإنتاجيات معرفية جديدة.

أما الغربيون فلم يصرحوا بمنقولاتهم وترجماتهم، قديما في الحقبة اليونانية وحديثا في عصر ما قبل النهضة الأوروبية، أي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، وجاءت نقولهم وترجماتهم سرية، لم تنسب إلى أصحابها الأصليين، وقد بدأت الأبحاث تصدر تباعا، من طرف المسلمين ومن طرف الغربيين أنفسهم، تؤكد هذا الحكم؛ فقد كتبت زيغريد هونكا كتاب: "شمس العرب تسطع على الغرب"، وكتب (جورج جي أم جيمس) كتاب "التراث المسروق الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة"، وكتب (مارتن بارنال) كتاب "أثينا السوداء: الجذور الأفرو آسيوية للحضارة الكلاسيكية" في جزئين، وكتب جورج سارتون "العلم القديم والمدنية الجديدة"، وغيرها من الدراسات العلمية الكثيرة التي حطمت أسطورة المعجزة اليونانية.

قي مقابل هذا يمكن التعرف على الإنتاج العلمي الغزير للمسلمين بالرجوع إلى كتب التراجم المصنفة علميا، حيث يوجد للأطباء تراجمهم وللأدباء معاجمهم وللعلماء والفقهاء طبقاتهم وسيرهم، كما يمكن الرجوع إلى التصنيفات الزمنية مثل كتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" وكتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" و"الكواكب السائرة في تراجم علماء المائة العاشرة" و"خلاصة الأثر في تراجم علماء القرن الحادي عشر" و"سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر"، وغيرها.

إذن فالمنهج يرتبط "بأنموذج النظر"⁽¹⁾ الحضاري، لأن كل ثقافة تريد أن تستأنف الدور الحضاري، لا بد وان تكون لها منهجية محكمة تتبعها، ورؤية كونية ناضجة وواضحة، توجهها نحو غاية معينة، لهذا فإن مفهوم المنهج لا يخرج عن المعنى اللغوي وهو الطريق البين والسبيل المستقيم، واختلاف الرؤى الكونية هي التي تحدد الموقف حول معنى الطريق البين والسبيل المستقيم، أما آليات تطبيق المنهج فإنها تتخلل جميع مظاهر الثقافة وكل منتجات الحضارة، سواء كانت مادية أو معنوية،

1- يعرف طه عبد الرحمن الأنموذج بقوله: "نستعمل "الأنموذج" بمعنى غير معنى "النموذج"، ولو أنهما مشتقان من أصل لغوي واحد؛ فالنموذج عبارة عن المثل بمعنى الطراز، ومقابلته الإنجليزي هو "Model" أو "Pattern"، في حين نقصد بالأنموذج على وجه الإجمال، منهجية متبعة ورؤية محددة للعالم، فمثلا نظرية نيوتن في الجاذبية أنموذج، ونظرية أينشتاين في النسبية أنموذج آخر، ومقابلته الإنجليزي هو "Paradigm"، أنظر كتابه: بؤس الدهرانية النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر. (ط2، 2014م)، ص30. وكذلك كتابه: سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد. بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع. (ط1، 2015م)، ص11.

وتظهر أكثر في العلم، لأن كل شعبة علمية لها خصائصها، وهذه الآليات التطبيقية بتوجيه الرؤية الكونية، هي التي تحدد مصير المنهج (الطريق)؛ فالاستقراء التجريبي استخدمه العلماء المسلمين في مختلف الشعب العلمية برؤية محددة أفضت بالعلم إلى توجه أخلاقي حضاري، واستخدمه الغرب في نهضته الحديثة برؤية أخرى أدت به إلى توجه مادي إلهادي لا أخلاقي.

لهذا فإن كل محاولة تتغيا النهضة والبناء الحضاري، والتجديد، والإصلاح... وكل ثورة علمية، لابد لها من "نموذج نظر جديد" بمنهجية جديدة، ورؤية كونية جديدة، تتجاوز عثرات المنهجيات والرؤى السابقة⁽¹⁾.

والحقيقة أن هناك منهجين كبيرين، منهج ينزل من السماء إلى الأرض، ينطلق من الكل إلى الجزء، ويبدأ مما هو موجود من ثوابت وأصول ونصوص، وعن طريق الاستنباط يصل إلى أحكام جزئية تفيد الإنسان في حياته اليومية المعيشة، وكلما كانت هذه النصوص والثوابت والأصول صحيحة كانت الحياة البشرية سعيدة، وكلما كانت النصوص محرفة وغير ثابتة وليس لها أصل، كانت الحياة البشرية شقية وتعيسة.

ومنهج يصعد من الأرض إلى السماء، وهذا هو الاستقراء، غير أنه إذا كان مسلحا وموجهها بكليات المنهج الأول، فسيصل إلى غايته، أما إذا انطلق انطلاقا صفرية، فسوف يخلد إلى الأرض، يتيه ويظل سواء السبيل ولا يستطيع أن يبلغ إلى السماء، وكل صنف من العلوم يستخدم منهج من هذين المنهجين حسب طبيعة شعبته، بحيث لا يمكن الفصل بين هذه الشعب وهذين المنهجين، لأنها تنبثق كلها من سراج واحد هو التوحيد، فعلم أصول الفقه يستخدم منهج الاستقراء والاستنباط بمختلف مسالكهما، وعلم العقيدة أيضا كيهف هذين المنهجين وعدلها بمسالكهما بحسب ما تقتضيه

1- لا يمكن هدم "نموذج نظر" قديم، إلا إذا ظهرت فكرة تؤسس "لنموذج نظر" جديد، والفكرة لا تسبح في الفراغ وإنما تسبح في فلك من الأفكار التي هي من نفس جنسها، فإذا ظهرت هذه الفكرة الرئيسة أو (المفهوم المظلة)، فستستقطب كل الأفكار والمفاهيم التي هي من جنسها ويتأسس "نموذج النظر الجديد"، فإندام نموذج بطليموس كان بفكرة "دوران الأرض"، لهذا فإن أصحاب النماذج الجديدة، نجدهم إما ينادون بتجديد المنهج وإما يؤسسون لرؤية كونية جديدة أو يسعون إلى تفعيل رؤية كونية قديمة أثبتت فعاليتها في وقتها، أو بما معا، ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر: الطيب برغوث والسننية وهو يعتقد أنها تؤسس لرؤية كونية جديدة، طه عبد الرحمن وشروعه المنهجي حيث يعتقد أنه يؤسس لنموذج فكري جديد، عبد الحميد أبو سليمان وكتابه "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية"، إيدغار موران في كتابه "المنهج"، ألان تورين في كتابه "براديجما جديدة لفهم عالم اليوم... إلخ.

المسائل الاعتقادية، والعلوم الطبيعية أيضا، فهناك تداخل عجيب بين المنهجين الاستقرائي والاستنتاجي في الممارسة العلمية والعملية⁽¹⁾.

أما ما يحصل الآن من تعدد وتنوع للمناهج، فهو تنوع وتعدد في الآليات المنهجية وليس في المناهج؛ فالنقد آلية، والوصف آلية، والتجربة آلية، والإحصاء آلية وهكذا...، لهذا فإن مفهوم المنهج اصطلاحا لا يخرج عن المعنى اللغوي وهو الطريق أو السبيل، سواء كان استنتاجيا نازلا أو استقرائيا صاعدا أما تتبع المفاهيم الاصطلاحية للآليات المنهجية، فليس بالأمر الهين واليسير، لأن المنهج الواحد تجرى عليه التعديلات والتكييفات بحسب ما يقتضيه مسار الشعبة العلمية وخصوصية العالم. كما يمكن التمييز بين نوعين من المنهج، المنهج بمعنى الهدى القرآني الذي هو الصراط المستقيم، وهو في كلمة جامعة الدين الإسلامي، خاصة في جانبه الاعتقادي، والمنهج بمعنى السبيل أو الطريق وهو نوعان: طريق الشكر والعمل الصالح، وهو طريق المتقين الذين أنعم الله عليهم، يؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، ويؤمنون بالكتب المنزلة، ويوقنون بالآخرة، وهذا الطريق هو طريق الهدى والفلاح.

والطريق الثاني وهو طريق الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم.

وخلاصة القول: فإن المنهج في شعبة علم العقيدة، كان في البداية مرتبطا ارتباطا عضويا بالعمل، والشاهد على ذلك عهد الرسول ﷺ، لم تظهر فيه المتون العقدية، بقدر ما ظهرت العقائد

1- وهذا ما دفع طه عبد الرحمن إلى التمييز بين ثلاثة أنواع من المنهجيات: "المنهجية التكاملية المميزة لتراث المسلمين، والمنهجية التداولية المستخدمة في الصنعة الفلسفية الغربية، والمنهجية الحجاجية المتضمنة في الصنعة المنطقية"، طالع: - طه عبد الرحمن. سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد. بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع. (ط1، 2015م)، ص16. ويقوم المنهج التكاملية عنده على مسلمتان مضمونيتان هما؛ لا تفكير في التراث بغير معاناة بالغة، ولا هوية للذات بغير سند التراث. وأربع مسلمات منهجية؛ منها مسلمتان عامتان هما: لا إبداع في المضمون الفكري بغير استقلال في المنهج الإجرائي المتخذ، ولا استقلال في المنهج بغير الخروج من مرتبة استنساخه إلى مرتبة القدرة على استنباط نظيره. ومنها مسلمتان خاصتان هما: أن القول بمنهجية مأسولة لا يصح إلا إذا صدقه العمل بها، وأن الحقيقة لا تظهر إلا على يد اثنين على الأقل: أحدهما مدع والآخر معترض، ينتج عن المسلمتين المنهجيتين العامتين، أن المنهجية التكاملية هي منهجية تسديدية لا تجريدية إذ تجمع بين العلم والعمل، وأنها منهجية اعتراضية لا عرضية لأنها تطلب الاشتراك في طلب الحقيقة وفي الانتفاع بها، وأنها منهجية اعتبارية لا عبارية، لأنها تُحَكِّم اللوازم الأخرى والأبعد في الأخذ باللوازم الأظهر والأقرب" وهذه المسلمات هي التي أسس عليها طه عبد الرحمن كتابه: "تجديد المنهج في تقويم التراث"، أنظر المرجع السابق، ص273.

كـمـارسة في حياتهم اليومية، فإذا شئنا أن نستنبط المنهج الذي مارسه السلف الصالح نجده في ثنايا الأحاديث الصحيحة، أو في تعامل المصطفى وصحابته مع الآيات الكريمة.

ثم بدأ بعد ذلك يرتبط بالاستدلال، حين توسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثر أعداؤها وظهرت الانحرافات العقدية... فإذا شئنا أن نستخرج المنهج والآليات المنهجية المتمثلة في طرق الاستدلال، نرجع إلى المتون العقدية، وإلى ظروف وملابسات الانحرافات العقدية التي صنفت من أجلها هذه المتون، خاصة المتون المرتبطة بالمكان والأشخاص، ويبقى نموذج منهج سيدنا إبراهيم عليه السلام وآلياته الاستدلالية على العقائد الإسلامية هو النموذج المثالي الذي يمكن الاعتماد عليه كمقياس للموازنة في المناهج العقدية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عنوان الماستر: العقيدة الإسلامية

السداسي: الثاني

اسم الوحدة: المنهجية

اسم المادة: مناهج الاستدلال في علم العقائد

الأستاذ المحاضر: عمار قاسمي

الرصيد: 04

المعامل: 02

أهداف التعليم: تمكين الطالب من إدراك مناهج الاستدلال في علم العقائد لدى المدارس

الكلامية الكبرى

المعارف المسبقة المطلوبة: درس الطالب في مرحلة ليسانس وماستر جوانب مختلفة حول

العقيدة الإسلامية.

محتوى المادة

المحاضرة رقم (2)

2- الاستدلال

"الاستدلال" من المصطلحات كثيرة التداول في الأوساط العلمية والتربوية مثله مثل؛ الاستقراء والمنطق والابستمولوجيا... إلخ، غير أن شكله بهذا الرسم، منعدم في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويكاد يكون منعدما في معاجم اللغة العربية المشهورة، حيث يوجد فقط جذره الذي يعود إلى الأصل "دلّ"، ففي القرآن الكريم ورد اللفظ في سبع آيات كريمات، قال تعالى: (ذُتْمَشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ) (طه:40)، وقال أيضا: (فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٌ لَا يُبَالِي) (طه:120)، وقال أيضا: (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رِبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا مَّا تُمُّ جَعَلْنَا مَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا) (الفرقان:45)، وقال أيضا: (وَوَجَدْنَا عَلَيْهِ الْمُرَاعِيعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) (القصص:12)، وقال أيضا: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا فُرِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَّنْزَقٍ إِنَّكُمْ لِنِ خَلْقٍ جَدِيدٍ) (سبأ:7)، وقال أيضا: (فَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَلَىٰ النَّوَاتِ مَا كَلَّمَهُمْ عَلَىٰ قَوْلِهِ

إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ (سبأ:14)، وقال أيضا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِقٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ مَعَذَابِ آلِ إِمٍ) (الصف:10)، والمتصفح لبعض التفاسير⁽¹⁾ سواء كانت بالرواية أو بالدراية أو التفاسير الموضوعية، يجد أن معاني كلِّ "تدور حول الدلالات التالية: هداية إلى الطريق، بين له الطريق سواء كان طريق هدي أو ضلال، إبانة الشيء بأمانة أو علامة معروفة، نَعْرِفُكُمْ بالشيء ونظيره لكم.

ونجد هذه المعاني نفسها في الحديث النبوي الشريف، في مواضع كثيرة نذكر منها الحديث الذي رواه، صهيب بن سنان الرومي، والذي يروي قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام⁽²⁾.

وفي المعاجم العربية لا يختلف مضمون هذا المصطلح عما وجدناه في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فقد ورد في معجم أساس البلاغة للزحشري أن: "دلَّه على الطريق، وهو دليل المفازة، وهم أَدْلَاؤُهُمْ، وأدلتَّ الطريق اهتديت إليها"⁽³⁾، ويذهب ابن فارس إلى أن لهذا الجذر اللغوي "دل" أصلا: أحدهما: إبانة الشيء بأمانة تتعلمها، والآخر: اضطراب في الشيء، فالأول قولهم: دلت فلانا على الطريق، والدليل الأمانة في الشيء، وهو بين الدلالة والدلالة، والأصل الآخر قولهم: تدلُّد الشيء إذا اضطرب"⁽⁴⁾.

1- نأخذ على سبيل المثال لا الحصر: - تفسير ابن كثير، ج3، مصدر سابق، ص154، من شدة وضوح اللفظ (أدلكم) لم يحمل نفسه عناء إيجاد مرادف له فقال في تفسير الآية: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَلِيٍّ مِنْ يَكْفُلُهُ** وكذلك الآية: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَلِيٍّ مِنْ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ** تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه نديها، فقبله ففرحوا بذلك فرحا شديدا، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة)).

2- أنظر: صحيح مسلم. كتاب الزهد والرفاق. باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، رقم الحديث:3005، (ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع)، ص1366.

3- الزحشري أبو القاسم جار الله. معجم أساس البلاغة. تحقيق باسل عيون السود، (ط1، 1419هـ-1998م)، ج1، بيروت: دار الكتب العلمية، ص295، والمعنى نفسه موجود في: ابن منظور. لسان العرب. تحقيق عبد الله الكبير وآخرون. (دط، دت)، القاهرة: دار المعارف، ص1413.

4- ابن فارس أبو الحسن أحمد. معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام محمد هارون. (دط، 1399هـ-1979م)، ج2، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص259-260.

أما في معاجم الفروق اللغوية ومعاجم الاصطلاح، فالمادة "استدلال" موجودة بكثرة، فأبو الهلال العسكري اعتبره: "طلب الشيء من جهة غيره"⁽¹⁾، وفرق بينه وبين الدلالة والعلامة والآية والأثر، "فالدلالة: ما يمكن كل ناظر فيها أن يستدل بها عليه، كالعالم لما كان دلالة على الخالق، كان دالا عليه لكل مستدل به، والعلامة ما يعرف به المعلم له"⁽²⁾، وهي متغيرة لأنها تكون بالوضع والاتفاق بين الواضعين، على خلاف الدلالة التي تكون بالاقتضاء، "والآية: هي العلامة الثابتة، والأثر: أثر الشيء يكون بعده، وعلامته تكون قبله"⁽³⁾.

أما الكفوي فيذهب إلى أن "الاستدلال لغة: طلب الدليل، ويطلق في العرف على إقامة الدليل مطلقا من نص أو إجماع أو غيرهما، وعلى نوع خاص من الدليل، وقيل: هو في عرف أهل العلم، تقرير الدليل لإثبات المدلول، سواء كان ذلك من الأثر إلى المؤثر، أو العكس"⁽⁴⁾. إذن للاستدلال في اللغة العربية معنيين؛ الأول: إيجابي؛ يتمثل في إبانة الشيء وإظهاره بأمانة والهدى إلى الطريق وتوضيحه، والثاني: سلبي؛ يعنى الاضطراب والارتباك وعدم الاستقرار.

أما من الناحية الاصطلاحية، فقد استخدم الاستدلال في مجالات معرفية مختلفة، وفي سياقات متباينة يمكن تصنيفها في أربعة مفاهيم: عند علماء الأصول، والفلاسفة، وعلماء المنطق، وعلماء النفس.

أ- الاستدلال في اصطلاح علماء الأصول: إن التدقيق في مفهوم العقيدة ومفهوم الاستدلال يؤكد أنهما مغلغومتناقضان، لأن المعتقد الحقيقي، هو الذي لا يحتاج إلى دليل واستدلال، فهو قد بلغ درجة اليقين، أما إذا كان اعتقاده ظنيا أو وهميا، ففي هذه الحالة قد يحتاج إلى الاستدلال.

1- العسكري أبو الهلال. الفروق اللغوية. تحقيق محمد إبراهيم سليم. (دط، دت). القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، ص70.

2- أبو الهلال العسكري، نفسه.

3- أبو الهلال العسكري، نفسه، ص71.

4- الكفوي. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. (دط، 1419هـ-1998م)، ص114، هناك شبه كبير بين ما ورد عند الكفوي وبين ما ورد في: التهانوي محمد علي الفاروقي. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. تحقيق علي دحروج. (ط1، 1996م). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ص151. غير أن التهانوي اعتبر هذا النوع من الاستدلال هو استدلال الأصوليين.

وهناك فرق بين الاستدلال على العقائد، وطرق توطين العقائد في نفوس الناس⁽¹⁾، وعدم طرح العقائد للنقاش والجدال بين الصحابة رضوان الله عليهم، في عهد المصطفى ﷺ، دليل على عدم حاجتها للاستدلال -في الأصل-، فالعقيدة توطن في النفس، وترسخ بالأعمال الصالحة والعبادات، التي شرعها الدين الحنيف، لكن الواقع التاريخي بعد المصطفى ﷺ أفرز متون عقديّة ومناهج للاستدلال عليها، فما هي ظروف وملابسات نشأة هذه المناهج الاستدلالية؟

في نهاية القرن الأول للهجرة، بلغت الفتوحات الإسلامية مداها، وتوسعت في ثمانين عاما أكبر مما توسع الرومان خلال ثمانية قرون، حتى تعجب أحد المستشرقين وهو ينظر إلى خريطة الفتوحات الإسلامية قائلا: "إما أن الأرض طويت لهم طيا أو انكشفت انكماشاً"، وقال آخر، بعد أن أكد الطابع الأخلاقي الرفيع للفتوحات الإسلامية، واستدل بوصايا أبي بكر ﷺ: "حتى أصبحت الفتوح العربية -التي كانت أسرع من الفتوح الرومانية، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية- أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله"⁽²⁾، هذه الفتوحات الكبرى نقلت المجتمع المسلم من صورته البسيطة في الجزيرة العربية، إلى مجتمع جديد أكثر تعقيدا وتركيبا، بعد أن تراكمت فيه الخبرة الحضارية لمصر والشام والهند والفرس واليونان والرومان...، مجتمع تنوعت مشاكله، وتعقدت الأبنية الفكرية لمؤسساته، فكان من الطبيعي أن يواجه المسلمون -خاصة علماءهم- هذا الواقع الجديد بوسائل جديدة، خاصة وقد كثرت المعتقدات غير الإسلامية في البلاد المفتوحة، وكثر أعداء الإسلام،

1- حدد عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ثلاث طرق لتركيز العقائد في نفوس الناس؛ طريق يقيني منطقي، وطريق ظني، وطريق وهمي شكلي: أما الطريق اليقيني المنطقي السليم فيقوم على أربعة مسالك؛ الإدراك الحسي، والإدراك أو الاستنتاج العقلي، ومسلك الخبر الصادق ومسلك الإشراق الروحي، وهو الطريق الصحيح لتوطين العقيدة في النفس. وأما الطريق الظني فله مسالك الطريق اليقيني نفسها مع عدم بلوغها درجة القطعية، وإنما تصل إلى حد غلبة الظن، وهذا الطريق مقبول إجمالا في العمل والعقيدة غير الجازمة الكافية لدفع الإنسان إلى العمل، حتى يأتي ما ينقض نتائجه، أو يعدلها أو يظهر فسادها.

أما الطريق الثالث فهو طريق الأوهام والشكوك والتقاليد العمياء، ولهذا الطريق مسالك كلها وهمية، تعتمد على الخداع أو على العصبية الممقوتة، ولذا فهو طريق مرفوض كلية، طالع:- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. العقيدة الإسلامية وأسسها. دمشق: دار القلم. (ط2، 1399هـ-1979م)، ص32-54.

2- ويل ديورنت. قصة الحضارة (عصر الإيمان). ترجمة محمد بدران. ج13، بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع. (دط)، ص73.

وشنوا حربا فكرية عقديّة بوسائل لا يعرفها المسلمون في جزيرتهم، وكيف لا وقد رفض الإسلام وأهله طريق الإكراه في الدين.

إذن بدأت العقائد ترتبط بالاستدلال، حين تسربت الانحرافات العقديّة إلى المسلمين، وظهر هناك من يشذ في اعتقاداته عما كان سائدا عند السلف الصالح، فاضطر علماء الأمة إلى الاجتهاد لبيان العقائد الصحيحة، واستخدموا في ذلك مناهج شتى للاستدلال عليها، تختلف عما كان عند السلف؛ "فقد وجد المسلمون أنهم يدافعون عن إسلامهم بمنطق بسيط، يعتمد على آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ، في مواجهة مؤسسات فكرية لاهوتية، قد تسلحت في صراعها ضدهم بمنطق أرسطو، وبحكمة الهند وفلسفة اليونان... ولا تؤمن بحجية القرآن والسنة، مما اضطرتهم إلى الاطلاع على أساليب ومناهج الخصوم، وتجاوزها إلى ابتكار أساليب جديدة تتميز بالقوة والأصالة"⁽¹⁾.

فإذا كان منهج السلف الصالح يعتمد، على آيات القرآن الكريم وما أثر على النبي صلى الله عليه وسلم، - (المنهج النصوي كما يسميه مُجد عمارة) -، ويسعى إلى تطبيقها لتوطين العقيدة في النفوس وإعداد الرجال لتقوية الدولة الإسلامية، فإن منهج الاستدلال بعد الفتوحات الكبرى اتخذ أشكالا مختلفة، تختبئ في ثنايا المتون العقديّة، فالذي يروم استخراجها، عليه أن يرجع إلى هذه المتون العقديّة، وإلى ظروف وملازمات الانحرافات العقديّة التي صُنِّفت من أجلها هذه المتون، خاصة المرتبطة بالمكان "كالعقيدة الواسطية" أو المرتبطة بالأشخاص كالعقيدة الطحاوية، أو المرتبطة بالقضايا والمذاهب العقديّة "كالرد على القدرية"... فالسياق التاريخي والاجتماعي الذي نشأ فيه المتن، والتجربة التاريخية والعقدية التي مر بها صاحب المتن، والصراع الذي عاشه للدفاع عن العقيدة، والواقع الاجتماعي والثقافي في ذلك العصر، ومضامين المتن في حد ذاتها، من حيث؛ البنية العقديّة والفكرية واللغوية والمنطقية، هي التي تحدد مناهج وطرق الاستدلال على العقائد.

بهذا ولاستجلاء مفهوم الاستدلال عند علماء الأصول، يستوجب البحث الرجوع إلى المتون العقديّة، ومحاولة الإحاطة بكل ظروف وملازمات نشأتها، فيما صنّفه علماء الأصول وفي مصنفات الملل والنحل، وكتب الطبقات والتراجم.

1- مُجد عمارة. السلفية. سوسة تونس: دار المعارف للطباعة والنشر. (دط، دت). ص 10-11. (تم التصرف في النص الأصلي لغويا).

فالعقيدة في الأصل لا تحتاج إلى مناهج استدلالية للمناقشة والجدل، بقدر ما تحتاج إلى مناهج لتوطئتها في النفس، لتبلغ بمعتقدتها درجة اليقين والتقوى، غير أن الظروف الجديدة أدت إلى ضرورة الدفاع عن العقيدة ضد الخصوم "ولعل الله سبحانه وتعالى قدر وجود هؤلاء العلماء- في زمن أرباب الأهواء، لتندفع بنورهم ظلم البدع عن الدين، وتمتاز بحسن شعائرهم أركان الشرع وأساس اليقين"⁽¹⁾، وكان أكبر من تصدى للأهواء والبدع رجلان هما: "أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي"⁽²⁾، فظهور مناهج الاستدلال للدفاع عن العقيدة مرتبطة بهذه الظروف التاريخية والاجتماعية الجديدة، وكل استخدام لها وراء قدر الحاجة منهي عنه، "لما ورد عن حماد بن أبي حنيفة رحمه الله، أنه كان يتكلم في الكلام، فنهاه أبوه عن ذلك، فقال له حماد: رأيتك وأنت تتكلم، فما بالك تنهاني، فقال: يا بني كنا نتكلم وكل واحد منا كأن الطير على رأسه، مخافة أن يزل صاحبه، وانتم اليوم تتكلمون كل واحد يريد أن يزل صاحبه، ومن أراد أن يزل صاحبه، فكأنه أراد أن يكفر، ومن أراد أن يكفر صاحبه، فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه"⁽³⁾، فهذا النص صورة حية عن تطور علم الكلام والمناهج الاستدلالية في العقائد، فبعد أن كانت تستخدم للدفاع عن العقيدة ضد الخصوم، أعداء الإسلام، نقلها البعض ونشرها بين المسلمين وجعلها سبيلا للجدل والممارات، بغية التباهي والغلبة، والانتصار للفرقة، فالفرق الكلامية لا وجود لها في الأصل، لأن مناهج هذه الفرق وجدت للدفاع عن العقيدة، بحسب ما تقتضيه الحاجة، لكن انحراف هذه المناهج عن غايتها حولها إلى فرق كل فرقة تعتقد أنها على حق وأن الفرق الأخرى على ضلال، وأنها هي الفرقة الناجية، مما أدى بالبعض إلى ذم الكلام وأهله والحنين إلى المنهج الذي كان عليه السلف الصالح.

فقد روى يحيى بن شيبان عن أبي حنيفة أنه قال: "وكنتم أعد الكلام أفضل العلوم وأرفعها، فراجعت نفسي بعد أن مضى فيه عمر، وتدبرته فقلت أن المتقدمين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والتابعين وأتباعهم، لم يكن يفوتهم شيء مما ندركه نحن، وكانوا عليه أقدر وبه أعرف وأعلم بحقائق الأمور، ثم لم يتهينوا فيه متنازعين، ولا مجادلين، ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا عن ذلك ونهو أشد النهي، ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيها، وعليها عاشوا، وإليها دعوا،

1- أحمد مصطفى (طاش كبرى زادة). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. ج2، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1405هـ-1985م)، ص149.

2- أحمد مصطفى (طاش كبرى زادة). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. م س، ص133.

3- أحمد مصطفى (طاش كبرى زادة). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. م س، ص135.

وكانوا يطلبون الكلام والمنازعة فيها، ويتناظرون عليها، وعى ذلك مضى الصدر الأول من التابعين وتبعهم، لما ظهر من أمورهم ذلك تركنا المنازعة والخوض في الكلام، ورجعنا إلى ما كان عليه السلف، وشرعنا فيما شرعوا، وجالسنا أهل المعرفة بذلك⁽¹⁾، والحقيقة أنه لا يمكن المفاضلة بين منهج السلف الصالح ومنهج المتكلمين، لأن كل منهج في سياقه وظروفه مفيد، فمنهج السلف هو الذي يجب أن يكفوا سائدا بين المسلمين في كل زمان ومكان، ومنهج المتكلمين يُستخدم فقط ضد أعداء الإسلام كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وهذا الاستخدام تحكمه شروط وضوابط شرعية ومنطقية⁽²⁾ يجب الالتزام بها.

أما بداية التصنيف في العقيدة الإسلامية، فقد اختلف العلماء في تحديد بداياته الدقيقة، فهناك من يربطه بالأحداث السياسية في صدر الإسلام⁽³⁾، وهناك من يرجعه إلى الفتن التي حصلت في ذلك الزمان، وهناك من يذهب إلى أعمق من ذلك، ويربطه بالأسباب النفسية والحنين إلى العقائد التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل البعثة، خاصة عند المسلمين الذين لم يتوطن الإسلام بشكل نهائي في نفوسهم، وكذلك أصحاب الاعتقادات المختلفة في البلاد المفتوحة، وهناك من يرجعه إلى الحرب الظاهرة والخفية التي شنها أعداء الإسلام الظاهرين أو الذين أخفوا أنفسهم نفاقا (المنافقين) أو عقيدة (اليهود والنصارى).

ورغم أن ابن النديم ذكر عددا من المصنفين، عاش أكثرهم في القرن الثاني للهجرة، إلا أن التصنيف في العقائد - حسب الكثير من مؤرخي الفرق الكلامية والملل والنحل - يرجع إلى القرن الأول الهجري، وقد أدرك ابن النديم ذلك، إلا أن أقدم الكتب لم تصله، لأن أصحابها حجبوها

1- أحمد مصطفى (طاش كبرى زادة). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. م س، ص 136.

2- أحمد مصطفى (طاش كبرى زادة). مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. م س، ص 139.

3- فؤاد سيزكين. تاريخ التراث العربي. مج 1، ج 4، ترجمة محمود فهمي حجازي، م ع السعودية: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. (ط 1، 1411 هـ - 1991 م)، ص 3. ويستند في موقفه إلى المستشرقين (فلهاوزن وجولد تسيهر) حيث يعتقدان أن الخوارج هم مؤسسو الدراسات العقديّة في الإسلام، لأن من الحقائق المعروفة في التاريخ الإسلامي، أن قضية الخلافة التي واجه الخوارج فيها فكرة الإمامة عند الشيعة وإرجاء المرجئة، قد تطورت تطورا سريعا إلى نقاش حول "القدر"، وذلك نتيجة للنقاش حول مرتكب الكبيرة، أكافر هو أم مسلم أم في المنزلة بين المنزلتين.

عنه⁽¹⁾، "وعلينا للتعرف على من سبقهم في القرن الأول للهجرة، أن نعتمد على ما ورد في كتب الطبقات وكتب العقائد من أخبار"⁽²⁾.

هناك نصوص كثيرة تثبت أن التصنيف في العقيدة الإسلامية بدأ في وقت مبكر، أي منذ القرن الأول للهجرة، وانطلق في شكل حوار ومناظرة بالرد على الخوارج والقدرية والجهمية، وحتى يسهل تتبع معاني الاستدلال الاصطلاحية عند علماء الأصول، ينبغي تحقيب تاريخ تصنيف المتون العقدية إلى حقب معرفية وزمنية، على المنوال التالي:

1-مرحلة الممارسة والتطبيق العملي للعقيدة الإسلامية: مجتمع مسلم نشأ في مكة وبدأ

برجل وامرأة وطفل، لا بد له من الحماية، لأن قريشا وأتباعها تريد القضاء عليه بشتى الوسائل، نتيجة اختلاف أئمة النظر بينها وبين ما يدعو إليه الرسول ﷺ؛ فقريش تشكل مجتمعا تجاريا ربويا، يعيش حياة مادية صرفة، تُقاس فيها قيمة الإنسان بمعايير مادية، ويقدر مركزه بتجارته وماله ونسبه ومرتبته في قبيلته، مجتمع يعبد الأصنام التي يصنعها من التمر والخشب والحجارة والطين، يأكل الميتة ويأتي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقطع الأرحام ويسيء الجوار ويأكل فيه القوي الضعيف...

أما الرسول ﷺ فيدعو إلى التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة مجتمع يشعر فيه المسلم أن المسلمين جميعا إخوة له، ولا رابط بينهم سوى العقيدة، أينما كانوا ومهما كانت قومياتهم ولغاتهم وألوانهم، يحبون له ما يحبون لأنفسهم، وهذه الرابطة أقوى من رابطة الدم والنسب، والجنس والحسب واللغة والمصالح المادية، تشكل مجتمع متحد في العقيدة، متفق في الفكر، منسجم بالشعور، يتميز بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء... مجتمع قيادته تشبه القلب الذي يضح الدم ولا يفاضل بين الأعضاء، يأتمر بما أمر الله وينتهي عما نهاه، لا يأتي الفواحش وقول الزور ولا يأكل مال اليتيم...، مجتمع قائم على التعارف والتعاون، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتضحية في سبيل الله بالنفس والنفيس...

ولحماية هذا المجتمع الناشئ، خصص الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، يقيم اللقاءات في سرية تامة، وينظم الأعمال تنظيما دقيقا. ولتوسيعه استقطب وكون رجال أشداء، حتى تكون النواة

1- أورد فؤاد سيزكين هذا الحكم في كتابه: تاريخ التراث العربي، مرجع سابق، ص3. وحاولنا التحقق منه في مصادره، ولم نجد إلا بعض الإشارات التي لا تؤكد هذا الحكم بصفة مطلقة، أنظر:- ابن النديم. الفهرست. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. (دط، دت)، ص242-254..

2- فؤاد سيزكين. تاريخ التراث العربي. مج1، ج4، المرجع نفسه، ص3.

الأولى قوية قبل الجهر بالدعوة، رجال ميزانهم التقوى والعمل الصالح، يؤدي كل واحد وظيفته من موقعه بشكل دقيق وآلي، وقد كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب، في بداية حقبة الجهر بالدعوة وزن كبير.

ويبدأ لاستقطاب بتلاوة الآيات، والتكوين بالتركية وتعليم الكتاب والحكمة، فالدرس العقدي يبدأ بتلاوة آيات القرآن الكريم، ثم ترسخ وتوطن العقيدة، ويزداد الإيمان بالتركية وتعليم الكتاب والحكمة، وأكثر الداخلين إلى الإسلام، يكون بسماع القرآن أو تلاوته⁽¹⁾.

هذا الاختلاف بين رؤية الرسول ﷺ ومنظور قريش، جعلت قريشا تناور بالعروض والإغراءات المادية انطلاقاً من منظورها، ولما فشلت، واحترار أبو سفيان كيف يحارب رجالاً لا يعرف سر قوتهم؟ اضطر إلى العنف، خاصة على الأشخاص الضعفاء، "فأمر الرسول ﷺ في العام السادس من الدعوة، بالهجرة إلى الحبشة، وكان ذلك على دفعتين، هاجر الضعفاء خوفاً على إسلامهم وحفاظاً على عقيدتهم"⁽²⁾.

وكانت الهجرة الأولى بعشر رجال وخمسة نساء، لكنهم سرعان ما عادوا لحينهم إلى الجو الذي كانوا فيه مع رسول الله ﷺ، وفي هذه الحقبة أسلم عمر بن الخطاب، ثم جاءت الهجرة الثانية إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب، نتيجة كتابة قريش للصحيفة الظالمة، وفي الحبشة كان أول حوار عقدي بين الإسلام والمسيحية.

ولما يئس الرسول ﷺ من إيمان قريش في مكة، وضعفت مكانته في هذا المجتمع؛ فقد توفيت زوجته خديجة، وتوفي عمه أبي طالب، فبدأ يبحث عن مكان يتخذة قاعدة للدعوة، ويؤسس فيه دولة المسلمين، فاتجه إلى الطائف، لكن قبيلة ثقيف نكّلت به وطردته شر طردة، فبدأ يذهب إلى المواسم: كموسم الحج والمواسم التي تقام في الأسواق، مثل عكاظ وذبي مجنة وغيرها، حيث تحضرها القبائل العربية للتجارة والاستماع إلى الشعر، يعرض نفسه على هذه القبائل، يدعوها إلى الله وإلى نصرته

1- هناك شواهد كثيرة: فعمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج متسحاً سيفه ليقول النبي ﷺ، قائلاً: "أريد مجداً، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله" فلقي قريبه نعيم بن عبد الله فوجهه إلى بيت أخته التي أسلمت ولم يكن على علم بما خوفها على رسول الله ﷺ، ... ومما حصل أن عمر وجد صحيفة فيها آيات كريمات من سورة طه فقرأها فوقع الإسلام في قلبه" طالع:- محمود شاكر. التاريخ الإسلامي ج2 (السيرة)، (ط8، 1421هـ-2000م). بيروت: المكتب الإسلامي. ص95-96.

2- محمود شاكر. التاريخ الإسلامي ج2 (السيرة)، (ط8، 1421هـ-2000م). بيروت: المكتب الإسلامي. ص92-95.

ومنعه حتى يؤدي رسالته، "فقد كانت غايته منذ البداية تثبيت العقيدة والسير على هدي الله من أول الطريق"⁽¹⁾، ولم تكن غايته جمع الناس من حوله ومقاتلة الخصوم، ورغم هذا فإن قريش لم تتركه وشأنه.

1- محمود شاكر. التاريخ الإسلامي ج2 (السيرة)، (ط8، 1421هـ-2000م). بيروت: المكتب الإسلامي. ص126.